

إبستمولوجيا الظاهرة الاتصالية والبراديغمات الجديدة

Epistemology of the communicative phenomenon and new paradigms

فؤاد بداني

أستاذ محاضراً

المركز الجامعي تمنراست

beddani.fouad@cu-tamanrasset.dz

تاريخ القبول: 2020/09/22

تاريخ الإرسال: 2020/05/14

الملخص:

إنّ إبستمولوجيا الظاهرة الاتصالية تعتمد في تأسيسها على جهود الباحثين و الخبراء الذين يميل أغلبهم إلى المقاربات التبسيطية (Simplistic approach) التي تساعد في نظرهم على صناعة القرار و فهم التأسيس المنهجي و النظري للاتصال ففي الورقة البحثية تفصيل للبراديغمات الابستمولوجية التي أسست للفكر الاتصالي و كيف يمكن تصنيف نظريات الاتصال حسب كل براديغم و اهم مميزات و خصائص كل اتجاه في حقل علوم الاعلام و الاتصال ، بالانتقال من السيبرنيطيقا الى البنائية الوظيفية لتظهر النقدية التأولية كثورة على المفاهيم الكلاسيكية في التفكير و التحليل.

الكلمات المفتاحية: الابستمولوجيا ، البراديغم ، الاعلام و الاتصال ، النموذج ،

النظرية

Abstract:

Epistemology of the communicative phenomenon depends in its establishment on the efforts of researchers and experts, most of whom tend to Simplistic approaches, which in their view help decision-making and understand the systematic and theoretical foundation of communication.

In the research article, an explanation and a simplification of the epistemological paradigms that have been established for communicative thinking, and how communication theories can be classified according to each Pradegem and the most important characteristics and characteristics of each direction in the media and communication sciences, moving from cybernetics to functional constructivism to reveal interpretive criticism as a revolution on classical concepts of thought and analysis.

Key words : Epistemology, pradigm, media and communication, paradigm, theory

مقدمة:

إن المعرفة الإنسانية دائما ما تتعرض لكثير من النقد و التغيير و هذا راجع لتغيير الحياة الاجتماعية و تعقد مظاهر تفاعل مناهج البحث في العلوم من الفلسفي إلى الوضعي العلمي وصولا إلى النقدي ما وراء الحداثي ، فذلك النقد المعرفي يسمى بالابستمولوجية و التي شكّلت في فترة تاريخية من عمر الفكر البشري منهج تفكير و طريقة نقد العلوم و زاوية نظر اتجاه تطبيقات أساليب التفكير المختلفة اتجاه وجود الانسان و مواضيع المعرفة و التحصيل التاريخي لزيادة الإرث الإنساني و تحقيق تراكم معرفي يسمح للإنسانية بالتطور و الانتقال الى الحضارة ، فتحسين طرق التفكير و العلم من نتائجه تحسين حياة الانسان باكتشاف ذرق جديدة في حل مشاكل الحياة و اكتشاف نظريات و نماذج تكون الحامل لذلك الفكر ، كل ذلك في أحضان الفلسفة التي شكّلت المجال الخصب لظهور الابستمولوجية و تطورها و وجودها في جميع العلوم تقريبا المتعلقة بالفلسفة و العلوم الإنسانية و الاجتماعية فنجد علوم الاتصال التي بدورها استفادت من علم الابستمولوجيا في تأسيس وجودها الفكري و الموضوعي على حد سواء .

إن إبستمولوجيا الظاهرة الاتصالية تعتمد في تأسيسها على جهود الباحثين و الخبراء الذين يميل أغلبهم إلى المقاربات التبسيطية (Simplistic approach) التي تساعد، في نظرهم، على صناعة القرار، و فهم التأسيس المنهجي و النظري المعرفي لفهم الظاهرة فكانت الأسس الأولى

تحاول الإجابة¹ على هذه الأسئلة و هي : ماذا نبحث في الاتصال؟ ما هي الموضوعات؟ هل يمكن تطبيق التحليل السوسيولوجي بكل أدواته على الظاهرة الاتصالية ؟

ظهرت الظاهرة الاتصالية مع بداية وجود الإنسان لممارسته الاتصال، وقد تطور هذا المفهوم عبر التاريخ نتيجة تطور وسائله؛ فبدأ الإنسان يمارس الاتصال عن طريق الإشارات والإيماءات والرموز، ثم مر بعد ذلك إلى أن اخترعت المطبعة التي كانت نقطة انعطاف في تحول تاريخ الاتصال من الاتصال التقليدي الشخصي إلى الاتصال الجماهيري؛ فالفضل يعود لهذه التقنية التي حولت المجتمع من مجتمع جمعي إلى مجتمع جماهيري. تجدر الإشارة أن معالجة المسألة الفكرية والفلسفية لا تتم بصفة تجريدية عن العوامل الأخرى، وفي هذا الإطار نعتقد أن أهم مدخل لطرح الإشكال الإبستمولوجي في الاتصال.

أولا /لابد من التعرف على أن أبحاث الاتصال مرت بمرحلتين على غرار الأبحاث الأخرى:

المرحلة الفلسفية : تبدأ المرحلة الفلسفية في أي علم بحصول تراكم معرفي كبير على مستواه ويؤدي إلى عجز أدواته التحليلية (مناهج وأدوات البحث) تصبح عاجزة عن معالجة هذا الكم من المعلومات تبدأ المرحلة الفلسفية في التفكير لإيجاد أدوات تحليل بديلة للقيام بالمهمة التحذيرية وهنا يدخل العلم المرحلة الفلسفية بالنسبة للعلم الذي سيظهر حيث يتم في هذه المرحلة التركيز على تحديد مجالات إهتمام جديدة عبر تكوين مفاهيم عامة بمعنى ليست محددة وإعادة النظر في الافتراضات الأساسية المعروفة وكذا في مناهج البحث وأدواتها فإذا كللت خطوة المراجعة باتفاق الباحثين أولا على طبيعة الموضوعات التي تم وضعها وكذا على نوعية المناهج والأدوات التي تستخدم في بحث هذه الموضوعات.

ب- المرحلة التجريبية : يتم فيها اختبار مضمون هذا الاتفاق ميدانيا من خلال القيام بتطبيق أدوات التحليل الجديدة في بحث الموضوعات الجديدة أيضا وهذا قصد جمع المعلومات والحقائق لتثبيت صحة أو خطأ ما اتفق عليه في المرحلة الفلسفية فإذا تمكنا من

الوصول في شكل نظريات وقوانين من خلال هذا الجمع للمعلومات فإننا نشهد بميلاد هذا العلم الجديد فإذا حصل تراكم معرفي جديد و عجزت المناهج والأدوات عن معالجة هذا الكم الهائل من المعلومات معناه الدخول في مرحلة فلسفية جديدة، فكيف تجسدت المرحلة الفلسفية والتجريبية في بحوث الاتصال؟.

لقد ارتبطت الأبحاث الإنسانية التي تناولت بشكل عام نشاط الإنسان بما قام به أرسطو في محاولة تفسير عملية الاتصال بين الأفراد والجماعات في كتابه فن البلاغة فقد قسم أرسطو الاتصال إلى الشخص المتحدث والحديث والمستمع .² لقد عرف الاتصال "بأنه جميع وسائل الإقناع المتوفرة -لأن الخطابة في زمن أرسطو والزمن الذي بعده قبل ظهور المطبعة كانت الأداة أو الطريقة الأساسية في عملية الاتصال حتى في الحضارة العربية الإسلامية - لتنتهي سيطرة الخطابة كأداة اتصال بعد ظهور المطبعة بالحروف المتحركة في أوروبا في القرن 15 ميلادي مما مهد إلى ظهور الدوريات في القرنين السابع والسادس عشر، فأدت الصحافة إلى نشر الأخبار وقيام الثورتين الفرنسية والأمريكية التي أعطت للمواطن الغربي الحريات الأساسية وحسنت أوضاعه الاجتماعية على مستوى الشغل والتعليم والرعاية الصحية مما جعله يرتقي ثقافيا واجتماعيا وسياسيا بالرغم من التطور الكبير الذي عرفته الصحافة المكتوبة منذ اختراع المطبعة سنة 1939 إلا أن أبحاث الإعلام والاتصال لم تواكب هذه النهضة ولم تحاول الاستقلال بنفسها كعلم مستقل بل استمرت في شكل دراسات تغلب عليها الطابع التاريخي والفلسفي والقانوني والأدبي ضمن الأبحاث الإنسانية معتمدة على الحدس والتخمين.³

- البراديغمات الاتصالية و ميلاد علوم الاتصال :

يمكن ترجمة مصطلح البارادايغم حسب ويكيبيديا (باللاتينية Paradigma) بأنه (النموذج الفكري) أو (النموذج الإدراكي) أو (الإطار النظري)، وقد ظهرت هذه الكلمة منذ أواخر الستينيات من القرن العشرين في اللغة الإنجليزية بمفهوم جديد ليشير إلى أي نمط تفكير ضمن

²- حسين سعد ، براديغمات البحوث الإعلامية -الإبستمولوجيا - الإشكاليات - الأذروحات ، دار المنهل اللبناني ، بيروت ، طبعة الاولى ، 2017 ، ص ص 38-39 .

أي تخصص علمي أو موضوع متصل بنظرية المعرفة «الإبستمولوجيا». وقد كانت الكلمة في أول الأمر قاصرة على قواعد اللغة، حيث كان تعريف قاموس ميريام ويبستر للكلمة من ناحية الاستخدام المتخصص لها في قواعد اللغة أو الكتابة الإنشائية كتشبيه أو حكاية. وفي علوم اللغة أيضا استخدم فرديناند دو سوسور كلمة باراديغم لتشير إلى طائفة من العناصر ذات الجوانب المتشابهة⁴.

إن الإجابة تكمن في أن القرون الأخيرة التي اكتملت بشكل عميق و كبير و متقدم فكريا بالمقارنة مع العصور القديمة و الوسطى ان المفكرين في هذه العصور أسسوا نموذجا جديدا للنظام الاجتماعي و الذي نستطيع ان نصنفه على انه نموذج أو (براديغم) التنظيم من خلال التعددية .و(البراديغم) مفهوم جديد لم يتبلور تعريفه في إطار ثابت و جامع مانع بل لا يزال يصقل و يضاف إليه و يقطع منه حسب الإيديولوجيات و المذاهب الفكرية و السياسية التي تتناوله كل من زاويتها و رؤيتها الخاصة .لكن بشكل عام و نسبي يعرف البراديغم بأنه (هو نموذج يشكل البناء التحتي لفكر ما و يحدد بنيته و يطرح حوله أسئلة محددة ، فضلا عن هذا ينظم معطياته و فق بنى و محيطات متعددة .و البراديغم في الفكر السياسي و الاجتماعي العام الحديث هو نطاق أو محيط في داخله نفكر بالمشاكل المتعلقة بالمجتمع و الدولة .

إن كل (براديغم) يركز على استيفاء أو الحصول على شكل ما للتنظيم أو الفوضى الاجتماعية و هذا يعني ما يحدد بدقة و احترام الازدهار و السلام و السعادة للمجتمع أو بالعكس هو الذي يحدث اضطرابات و بلبلة و عدم استقرار و سقوط و انهيار، هذا المفهوم للتنظيم سيحدد كل شيء على سلم أو مقياس للقيم بما يتعلق بالسياسة و الاقتصاد و الاجتماع ومن خلاله نحدد

⁴ - حسن سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الاعلام و الاتصال و اشكالياتها المعرفية متاح في :

https://cte.univ-setif2.dz/moodle/pluginfile.php/28162/mod_glossary/attachment/2944/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%BA%D9%85%D8%A7%D8%AA%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%B7%D8%B1%D8%A9%20%D9%81%D9%8A%20%D8%B9%D9%84%D9%88%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D9%84%20%D9%88%D8%A5%D8%B4%D9%83%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%AA%D9%87%D8%A7%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%A9.pdf - p7 le 20-01-2020.a

معيار أو معايير ما نفضل و الأعمال التي سنقوم بها و البرامج التي سنعدها .وفي الفكر السياسي الغربي الحديث نميز ثلاث عائلات من النظريات اليمين اليسار و الديمقراطية الليبرالية و نستطيع اعتبار ان كل واحدة من هؤلاء تقاد بشكل عميق من خلال براديفم أساسي أو رؤية اجتماعية للنظام ، فمثلا الفكر اليميني يظهر كأنه يقاد من خلال النظام الفطري أو الطبيعي أم اليسار من خلال نظام مصطنع و التقليد الديمقراطي و الليبرالي من خلال نظام عفوي تعدي ثقافي متداخل و متعدد التنظيم⁵.

- البراديفم المهيمن في وقتنا الحالي هو البراديفم الليبرالي حيث تتبناه الدول الكبيرة و التي لديها دور فعال في القرارات الدولية و الإقليمية و البراديفم الليبرالي لا يشمل فقط حرية السوق و المبادرات الفردية بل يشمل ايضا تعددية الصحافة و العلوم و تفتح الحقيقة و نموها فالتعددية تولد شكلا ساميا للنظام لهذا السبب في العصر الحديث و المعاصر تطورت مذاهب الديمقراطية الليبرالية إلى حد كبير و تاريخ الفكر السياسي في هذه الفترة يستطيع أن يكون متصفا أو مطبوعا كتاريخ يرتقي أو يدور في داخل (براديفم التعددية) و من جهة أخرى يدور بنفس التناسق في صراع ضد نموذج من التفكير يقام بواسطة مفكري (اليمين) المرتبطين ب (براديفم)النظام الطبيعي و مفكري اليسار المرتبطين في براديفم العقل البنائي .فضلا عن هذا فالبراديفم الليبرالي لديه تعبيراتها المذهبية الكاملة إلى حد كبير في العصر الحديث و المعاصر وهذا ما تفتقر إليه البراديفمات الأخرى.

ميلاد البراديفم:

مصطلح استخدمه للمرة الأولى توماس كوهن في كتابه ” بنية الثورات العلمية ” 1962، ليفسر عملية ونتيجة التغيير التي تحدث ضمن المقدمات والفرضيات الأساسية لنظرية لها القيادة

⁵ - حسين سعد ، براديفمات البحوث الإعلامية -الإبستمولوجيا، مرجع سابق ، ص 8.

للعلم في مرحلة محددة من الزمن. منذ أن استخدمها كوهن انتشر استعمالها بشكل واسع، حتى في محالات أخرى من التجربة الإنسانية⁶.

تحول البراديغم حسب كوهن :

تحول البراديغم هو الثورة العلمية حسب توماس كوهن. انه ثورة في النمط العلمي بشكل أدق، حيث أن مفردة البراديغم تعني "النمط الفكري". تحدث الثورة العلمية، حسب كوهن، عندما يواجه العلماء مشاكل لا يمكن حلها حسب النمط السائد عالمياً، ولهذا يجب، من حل هذه المشاكل، تجاوز هذا النمط، بالإضافة إلى تكوين نظرية جديدة. البراديغم، بهذا المعنى، هو ليس النظرية السائدة الحالية، بل هو الرؤية للعالم، والتي تحتوي على هذه النظرية، وكل المعاني المتضمنة داخل هذه الرؤية. حسب كوهن، كل براديغم، يحتوي على مشاكل معينة، يتعامل معها العلماء على أنها حد أدنى ومقبول من الخطأ، ويتم تجاهلها ولا يلتفت إليها. (وهذا خلاف أساسي يعارض فيه كوهن مبدأ التخطئة لكارل بوبر، الذي يعتبر أن وجود إمكانية الخطأ هو أساس ومحور ان تكون النظرية علمية)، على العكس من ذلك، يرى كوهن، أن المشاكل في كل نظرية علمية، تجتذب اهتماماً مختلفاً لممارسي العلم في وقت بعينه ففي أوائل القرن العشرين، كان هناك اهتمام من قبل البعض بنقطة أوج المريخ (ابعد نقطة عن الأرض) أكثر مما كان لهم بنتائج تجربة مكلسون- مورلي. والعكس صحيح بالنسبة لعلماء الآخرين⁷.

براديغمات علوم الإعلام و الاتصال

1 - البراديغم السيبرنيطيقي : لقد اعتبر ظهور السيبرنيطيقا ثورة علمية خاصة في ميدان التكنولوجيا ، وقد أدت إلى ظهور الآلات والأجهزة الذكية التي بإمكانه تعويض الإنسان في عمله ووظائفه ، ويعود اكتشاف هذا العلم الذي يعد حديث النشأة إلى الأربعينيات من القرن

⁶ - حسين سعد ، براديغمات البحوث الإعلامية -الابستمولوجيا، مرجع سابق ، ص 42 .

⁷ - حسن سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الاعلام و الاتصال ، مرجع سبق ذكره ، ص 9 .

الماضي من طرف عالم الرياضيات الأمريكي نوربرت فينر (1894-1964 م)، وكان ظهور السيبرنطيقا كنتيجة لحل مشكلة عسكرية خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كانت القوات العسكرية الأمريكية تواجه صعوبة كبيرة في إسقاط الطائرات الألمانية التي كانت تراوغ بسرعة كبيرة، وأسندت مهمة حل المشكلة إلى العالم نوربرت فينر مع فريق من العلماء من مختلف التخصصات كالطب، الرياضيات، علم النفس، وغيرها، وتمكن توربرت فينر من إنشاء جهاز مكون من مدفعية أرضية وآلة حاسبة، حيث يتم تزويد الآلة الحاسبة بمعلومات مستمرة حول موقع الطائرة ومن ثم يتم الكشف عن موقعها اللاحق، وكانت هذه بداية السيبرنطيقا التي تقوم على التغذية المرتدة أو رجع الصدى، أو رد الفعل، من خلال هذه الفكرة قام نوربرت فينر بتطوير أبحاثه والوصول إلى البرمجة الآلية من الجيل الأول للسيبرنطيقا والتي تقوم على الفعل ورد الفعل، وحاول تطبيق هذه الفكرة على الإنسان قصد التحكم في الإنسان وتوجيهه بناء على الأفعال ردود الأفعال، فظهر ما يعرف بالسيبرنطيقا الاجتماعية، غير أن نوربرت فينر سرعان ما اكتشف أن الإنسان معقد في سلوكاته وردود أفعاله، مما دفعه مجددا إلى العمل على تطوير أبحاثه والوصول إلى الجيل الثاني من السيبرنطيقا، حيث ظهرت الآلات الدكية التي لها عدة ردود أفعال.

إن مفهوم السيبرنطيقا يعني التحكم والضبط، استنادا إلى المعنى اللغوي اللاتيني للمصطلح والذي يعود إلى kubernetike وهو المصطلح الذي أطلقه أفلاطون على موجه السفينة، والسيبرنطيقا كما سبق الذكر تقوم على التغذية المرتدة من خلال متابعة وضع ما خلال فترات زمنية معينة لتحديد الوضع اللاحق، أي أنها تقوم أساسا على المعلومة، وعليه نجد أن هناك السيبرنطيقا تتداخل مع وسائل الإعلام من حيث المبدأ الذي هو المعلومة ومن حيث الهدف الذي هو التحكم والضبط، وكل من السيبرنطيقا ووسائل الإعلام يشكلان ظاهرتين مهمتين تلعبان دور رئيسي في تحديد وتوجيه السلوكات الاجتماعية.⁸ لفقد قام ماكلوهان بتقسيم مراحل المجتمع البشري وفق الوسيلة الرئيسية المستخدمة في نقل المعلومات إلى ثلاث مراحل: مرحلة الاتصال الشفوي، مرحلة المطبوع بظهور الطباعة على يد جوتنبرغ عام 1436، وأخيرا مرحلة

⁸ - حسن سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الاعلام و الاتصال، مرجع سبق ذكره، ص 25.

العقول الإلكترونية والمعلومة الرقمية⁹. ذهب ماكلوهان إلى اعتبار وسائل الإعلام امتداد للحواس الإنسانية ، حيث يعتمد الإنسان خلال إتصاله بالعالم المحيط على وسائل الإعلام ، وبالتالي فوسائل الإعلام هي جزء لا يتجزأ من الإنسان حيث انه يستخدمها في إدراكه لما حوله ، وما لا تنقله وسائل الإعلام فهو غير موجود ويتدعم موقف ماكلوهان من خلال الفرنسي بورديو ، فحسب هذا الأخير التلفزيون ليس مجرد أداة لتقديم التسلية والثقافة ، إنما هو أداة للضبط والتحكم الاجتماعي ، وفقا للمصطلح الذي يستخدمه بورديو فالتلفزيون أداة للعنف الرمزي، لأن مشاهدة التلفزيون ستؤدي إلى اكتساب معاني وأفكار ومعتقدات وصور رمزية حول العالم الذي يقدمه التلفزيون بعيدا عن العالم الحقيقي أو الواقعي ، بمعنى آخر فإن التلفزيون يقود إلى بناء اعتقاد حول طبيعة العالم الاجتماعي من خلال تقديم الصور النمطية ووجهات النظر المنتقاة التي يتم وضعها في الأخبار والأعمال التلفزيونية ، والأحداث التي لا يعرفها التلفزيون هي أحداث لا وجود لها، وعليه نجد أن هناك قواسم مشتركة بين كل من السيبرنطيقا ووسائل الإعلام ، حيث أن كل منهما يقوم على المعلومة ، وكل منهما يسعى للتحكم والضبط ، كما أن هناك علاقة تبادلية بينهما ، حيث تطرح السيبرنطيقا التقنيات المتطورة المستخدمة في وسائل الاتصال في نفس الوقت تكون الوسيلة الإعلامية بمثابة آلية من آليات التحكم السيبرنطقي.

- إن ظهور السيبرنطيقا طرح الحاجة إلى آلة تستطيع حل المشكلة في أقل وقت ممكن ، وتم إسناد مهمة تطوير المدفعية المضادة للطائرات إلى العالم الأمريكي نوربرت فينر Norbert Wiener بمساعدة فريق عمل مكون من باحثين من مختلف التخصصات طب ، رياضيات ، اتصالات ، تكنولوجيا ، علم الاجتماع ، علم النفس، و كان المنطلق هو كيف يمكن توقع موقع الطائرة اللاحق من أجل تحديد سرعة واتجاه القذيفة ، أو بمعنى آخر فإن نوربرت فينر "Norbert Wiener" الذي ينسب إليه علم السيبرنطيقا كان يهدف إلى تحديد السبل العلمية الدقيقة التي يستطيع من خلالها مدفع أرضي أن يصيب هدفا متحركا يسير بسرعة فائقة .

⁹ - جيهان أحمد رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط 3 ، 1986 ، ص 374.

تمكن نوربرت فينر Norbert Weiner في الأخير من تصميم جهاز إلكتروميكانيكي مكون من آلة حاسبة machine a calcul تستطيع حل المعادلات الرياضية ، وهذه الآلة الحاسبة متصلة بمدفع

ومن خلال تزويد هذا الجهاز بالمعلومات حول موقع وسرعة الطائرة يستطيع التنبؤ بالموقع اللاحق وبالتالي القدرة على إسقاطها، وهذا ما يعرف بالتغذية المرتدة، بمعنى أن حل المشكل كان من خلال دراسة رد فعل الطائرة ، وهذه الفكرة كانت بسيطة في بدايتها إلا أنها حققت نجاحا كبيرا في مختلف ميادين العلم - ففي مجال العلوم التطبيقية فتحت مجال البحوث للوصول إلى آلات ذكية وظهر ما يعرف بالذكاء الاصطناعي الذي يتمثل في الروبوتات ، وأجهزة الكمبيوتر وغيرها من الآلات التي أصبحت تنافس الإنسان إلى حد ما ، فاستخدام «التغذية المرتدة» أو «رد الفعل» سيمكن من التنبؤ بالظواهر أو السلوكات المستقبلية سواء كانت تخص كائن حي أو آلة ، مما يسمح بمراقبة وتوجيه تلك الظواهر والسلوكات والتحكم فيها ، وبالتالي فإن كل نتيجة تؤثر بشكل إرجاعي في سبب وجودها.

لقد تداخلت السيبرنطيقا مع العديد من العلوم فظهرت مثلا السيبرنطيقا العصبية (neuro cybernétique)، السيبرنطيقا الحيوية (bio cybernétique) . كما تدخلت في الوصول إلى الآلات ذاتية الحركة كألعاب الفيديو وفي هذا الصدد يرى فينر Norbert Weiner أن العلوم التي تبدو منفصلة هي في الحقيقة تتلاقى وتتشابه في نتائجها مما يجعل في الإمكان إعادة توحيدها ، ويرى فينر Norbert Weiner أن الأمر يستدعي وجود فريق من العلماء المتخصصين في فروعهم العلمية ، ولكنهم في نفس الوقت يعرفون لغة وأفكار العلوم الأخرى ، وهكذا أنشأ نوعا جديدا من العلماء المتخصصين في الطب والرياضيات في نفس الوقت ، هؤلاء هم علماء السيبرنطيقا¹⁰.

¹⁰ - خير الله عصار، مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية : محاولة التحكم بالسلوك الاجتماعي ديوان المطبوعات الجامعية/ الجزائر 2002، ص 15 .

على الرغم أن السيبرنطيقا لا تزال عبارة عن مفهوم يشوبه الغموض إلا أنه يوجد اتفاق مبدئي على أن السيبرنطيقا تعني التحكم ، وهذا استنادا على المعنى اللغوي للمصطلح ، فقد أطلق أفلاطون مصطلح kubernetike على موجه السفينة ، وينطوي مفهوم التحكم على الثلاث عمليات التالية أو كلها:

الحساب الدقيق للنتائج أو العواقب المترتبة عن سلسلة من الأحداث سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو آلية.

1-تحريك الأحداث أو المعطيات الموجودة حسب خطة أو مسار محدد.

2-التنبؤ بالأحداث التي يمكن أن تقع عن طريق القيام بعمليات ذهنية أو حسابية.

3-كما يشمل هذا المفهوم ثلاث عناصر رئيسية وهي:

الاتصال : (communication) ونجاح العملية الاتصالية يستوجب وجود اتفاق بين المرسل والمتلقي على المعنى الذي تتضمنه الرسالة ، فإذا حدث خلل في الاتفاق على المعنى ، حدث سوء الاتصال .

كذلك فإن المرسل والمستقبل يتبادلان الأدوار معنى أن المستقبل يغدو مرسل والعكس.

إن التحكم في المفهوم السيبرنطريقي يستوجب أن تكون الرسالة محددة و مضبوطة ويكون الرد كذلك عبارة عن رسالة محددة ومضبوطة ، فكلما أرسل « س » الرسالة « أ » فإن « ع » يرد بـ « ب » دائما ، وهذا ما يطلق عليه بالبرمجة في أبسط معانيها ، و لتوضيح المعنى أكثر يمكن أن نقدم مثال حول مبدأ عمل الثلاجة التي هي عبارة عن نظام سيبرنطريقي ، فإن جهاز قياس البرودة سيتنبأ بذلك ويصدر أمر للمحرك ، وهذا الأخير سيبدأ في العمل مجددا ، فالثلاجة هي عبارة عن تطبيق للمفهوم السيبرنطريقي من الجيل الأول ، الذي يشمل الآلات التي تكون لها استجابات آلية. أما الجيل الثاني فيشمل الآلات التي تعرف بالآلات الذكية ، كالروبوتات وأجهزة الكمبيوتر ، والتي تكون لها استجابات متعددة¹¹ . لقد سمحت التغذية

¹¹ - خير الله عصار ، مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية ، مرجع سبق ذكره ، ص 16 .

الراجعة بالوصول إلى آلات تستطيع التمييز بين الفروق كالسيارة التي تعمل أبوابها آلياً، لكنها لا تفتح إلا لصاحبها، أو المنشار الآلي الذي يقطع الخشب والحديد لكنه لا يتوقف عندما يمد صاحبه ذراعاً¹².

تطبيقات السيبرنطيقا في العلوم الاجتماعية " الإعلام و الاتصال :

إن دراسة تطبيق السيبرنطيقا في الميدان الاجتماعي تدفعنا إلى التعرض لزاويتين مختلفتين، فالزاوية الأولى تتمثل في النتائج المترتبة عن السيبرنطيقا كفكرة علمية تقنية والتي فتحت المجال لتطوير الآلة ، وأفرزت ما يعرف بالذكاء الاصطناعي ،الذي تمثل في أجهزة الحاسوب ، والرجل الآلي وغيرها من الوسائل وتكنولوجيا المعلومات. لقد فرضت هذه الأجهزة والتكنولوجيا نفسها على المجتمع وأصبحت تعرف بالثورة السيبرنطيقية ، cybernétisation of society و هو مفهوم استخدم لوصف الانتشار الواسع للأنظمة السيبرنطيقية في المجتمع.

هناك من يرى أن السيبرنطيقا تمكن الإنسان من تنظيم عالمه و بيئته تنظيمًا محكمًا، كالاعتماد على الحاسوب الإلكتروني الذي يستطيع أن يقوم بأفعال وعمليات عقلية بصورة سريعة ومدهشة من خلال استخدام المعلومات بطريقة يعجز عنها العقل البشري فالسيبرنطيقا ستتيح للإنسان قدرة هائلة على مواجهة مشكلاته وإمكانية إيجاد الحلول بناءً على تراكم المعلومات من جهة وعلى التحكم بالبيئة الفيزيائية والاجتماعية من جهة أخرى. أما الموقف المعارض فيرى أن انتشار السيبرنطيقا على نطاق واسع يؤدي إلى الحد من حرية الإنسان من خلال نمذجة مساراته العقلية حسب أهداف محددة ، كما يوجد تنبؤ بحصول ضعف عقلي عند الإنسان العادي بسبب الإفراط في استخدام الآلات. أما الزاوية الثانية فتتمثل في استخدام المبادئ السيبرنطيقية في الدراسات الاجتماعية، بمعنى أن الظواهر والسلوكيات الاجتماعية يتم التعبير عنها بطريقة رياضية تقنية قصد توجيهها والتحكم فيها ، وهذا ما أطلق عليه بالمقاربة

¹² – Norbert Wiener: *Cybernetics Or control and communication in the animal and the machine*; The Technology Press; John Wiley & Sons, Inc., New York; Hermann et Cie, Paris; 1948, p194.

السوسيوسبيرنطيقية ، و يعتبر نوربرت فينر Norbert Wiener أو من حاول نقل السبيرنطيقا إلى دراسة الإنسان وقد طرح هذه الفكرة من خلال كتابيه: 1- The human use of human beings . 2- Cybernétic or control and communication in the animal and machine ، وبالنسبة لفينر Norbert Weiner فإن الرسالة التي تصدر من مرسل سواء كان إنسان أو حيوان أو آلة تحدد ما يجب على المستقبل القيام به من خلال التحكم في مضمونها،¹³ بمعنى أن التحكم في مضمون الرسالة الصادرة سيحدد سلوك المستقبل الذي سيظهر على شكل رد فعل أو تغذية راجعة كما سبق الذكر .

إن العلامة نربر فينر (Norbert Wiener) يرى أن هناك تماثلا بين الإنسان والآلة ، فكل منهما يملك مستقبلات للمعلومات من العالم الخارجي على شكل رسائل يمكن تحديد محتواها ، و كل منهما يقوم بمعالجة المعلومات الواردة من خلال جهازه الداخلي (الدماغ بالنسبة للإنسان) ، كما أن كلاهما يقوم بالرد على شكل تغذية مرتدة (راجعة) بناء على الرسائل الواردة ، أي أن العلامة فينر رأى أن السلوك الإنساني عبارة عن ردود أفعال ميكانيكية ذات اتجاه خطي من الجيل الأول كما سبق الذكر، وقد لقيت هذه المقاربة اعتراض من طرف الكثير من علماء الاجتماع لأنها عبارة عن تبسيط مغل للسلوك الإنساني، فالإنسان هو منظومة حيوية لها وظائف وأنماط استعمال للمعلومات لا تعرفها الآلة حتى أن العلامة فينر اكتشف سريعا محدودية التماثل بين الآلة والإنسان وأقر بأن هذا الأخير أكثر تعقيدا ، وتوجد عوامل عديدة تؤثر في أفعاله يصعب التحكم بها جميعا.

وهذا ما دفعه إلى تطوير الجيل الأول للسبيرنطيقا وينتج الجيل الثاني الأكثر تطورا.

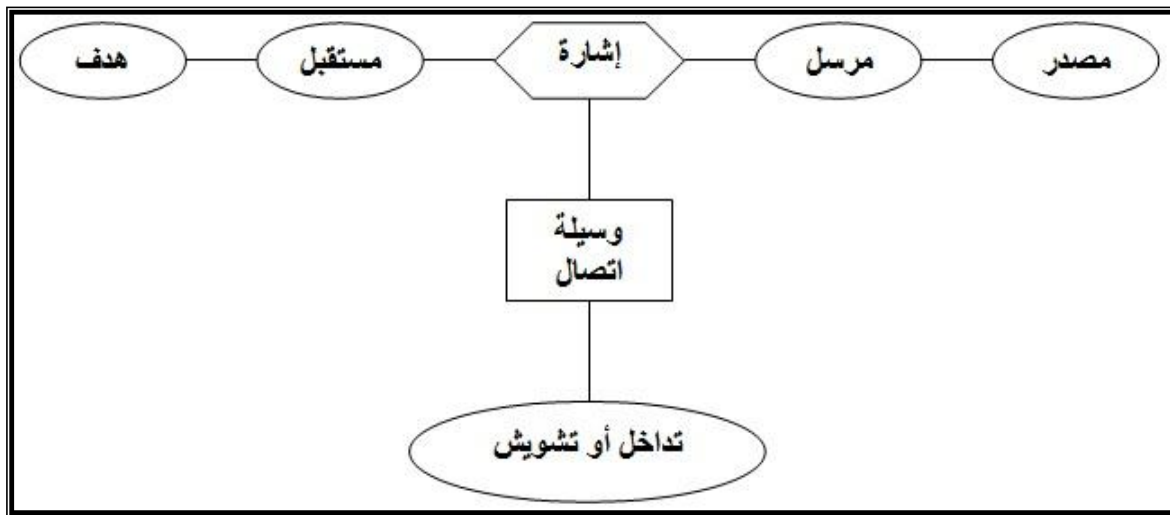
نموذج "شانون و ويفر" النموذج الرياضي نموذج بث الإشارات (Shannon and waver

(model

¹³ - Norbert Wiener, op. cit., p. 159.

لقد وضعه عالم الرياضيات << شانون >> حين كان يعمل في شركة بل الأمريكية للهاتف هو ومساعدته ويفر عام 1949 ، وأصبح النموذج الأكثر تأثيراً وقد استتبطن شانون الصيغة الأولى من بث إشارات المنظومة التقنية كتلفون التلغراف ثم سرعان ما تم تعديله لتعديل عملية الاتصال بين الأفراد فتم تبديل جهاز الإرسال بالمرسل و جهاز الاستقبال بالمستقبل ، وقد أضاف نموذج شانون فكرة جديدة هي فكرة التشويش (أي الاضطراب في عملية الاتصال) و يبين شانون سير المعلومات من المصدر إلى المستقبل و قبل أن تصل للمستقبل فإن هذه المعلومات تعترضها ظروف مختلفة مثل التحريف أو المواد الدخيلة كالبكاء أو الضحك و يطلق عليها مصدر التشويش و هي غير موجودة في أصل الرسالة و هذا ما يعرقل عملية الفهم . فالرسالة تتعرض إلى التشويش أثناء رحلتها من المرسل إلى المستقبل و هذا يؤدي إلى ما نسميه بعدم التيقن و يمكن التغلب على عدم التيقن بالتكرار و هناك صور لهذا التشويش تمارسها مثل الرسوم الكاركاتورية التي تظهر على الصحف والمجلات فتكون عملية الفهم مشوشة و مختلفة من مستقبل إلى آخر¹⁴ ، و في هذا النموذج نجد أن عملية الاتصال تسير في طريق واحد وقد حدد ثلاث خطوات لسيورها منوها إلى عنصر التشويش الذي يعيقها .

الشكل التالي : نموذج شانون وويفر للاتصال.



¹⁴ - جيهان أحمد رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام، مرجع سبق ذكره ، ص35.

إن الخطوة الأولى في الاتصال هي مصدر المعلومات الذي يقوم بإنتاج رسالة أو سلسلة رسائل اتصالية بعدها يتم تحويل الرسالة الاتصالية بواسطة إشارات إلى جهات البث أو الإرسال بحيث تتناسب مع طبيعة القناة إلى جهاز الاستقبال على أن تكون وظيفة الثاني على عكس الأولى لأن جهاز الإرسال يحولها إلى إشارة الكترونية بينما الاستقبال يحولها إلى رسالة اتصالية.

لنقل بالنهاية الرسالة إلى وجهتها ، بالإضافة إلى المشاكل التي تتعرض لها الرسالة الاتصالية من تشويش ويحصل ذلك عند مرور عدة إشارات عبر نفس القناة وفي نفس الوقت الأمر الذي يؤدي إلى اختلافات بين الإشارة المبتوثة والواصلة إلى المستقبل أو إلى الجهة المرجوة إلى المستقبل إلا أن هذا النموذج تم نقده بسبب عدم احتوائه على عنصر التغذية الراجعة و تسير في طريق واحدة . إلا أن الأمر الآن تغير بتغير وسائل الاتصال ، كما تم استخدام النموذج من طرف علماء المعلومات واللغة والسلوك¹⁵:

- البراديغم السلوكي : سلوكية " واطسون."

- تحليلية فرويد.

- بنائية بياجيه.

- اتجاهات تراجع صيتها وقل بريقها.

بالمقابل كان لظهور السيكلوجيا المعرفية انطلاق تحولات هائلة , كانت السبب في بروز اكتشافات علمية وخاصة على مستوى كفاءات الطفل المبكرة ودور الآخر في نموه وفي تعلمه فالأكيد أن انطلاق هذه السيكلوجيا - ذات الطابع المعرفي كاتجاه جديد في علم النفس في أوائل الستينات من القرن الماضي قد غير بصورة جذرية طريقة تصورنا للنفس الإنسانية وأسلوب دراستها. فبراديغمها المعرفي الذي يعتبر الذهن كنوع من البرمجة المعلوماتية المستعملة للرموز المجردة , يشير بوضوح إلى أن ثورة معرفية فعلا حدثت في مجال علم النفس.

¹⁵ - حسن عماد مكاي ، ليلي حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2009 ، ص 48.

*إن الإنسان عامة والطفل خاصة عبارة عن نظام فعال لمعالجة المعلومات. إنه آلة نشيطة للاكتساب، يتعلم باستمرار، ويتكيف بانتظام، ويواجه المشاكل على الدوام، فهو من منظور السيكولوجيا المعرفية المعاصرة، يتوفر منذ سن مبكر على كفاءات معرفية ومتامعرفية تمكنه من "التفكير والفهم والتنظير والمواجهة" على عكس ما ذهبت إليه المقاربات السيكولوجية السابقة لقد أصبح ممكنا، بل من المسلم بإيجاد حلول فعلية لمشاكل "العجز والتأخر والفشل والإعاقة" التي تواجه الطفل في شتى مجالات التعليم، والتكيف والتواصل والاندماج، وذلك عن طريق اعتماد برامج وطرق سيكولوجية لتشخيص كفاءات الطفل المعرفية وأنشطته الذهنية المتنوعة، والعمل على تقويمها وتربيتها.

*المقاربة المعرفية إذن، تعاملت مع سيكولوجية الطفل وسيرورة الاكتساب بمنظور مغاير لما كانت عليه الأمور في المقاربات السيكولوجية السابقة¹⁶ :
-المقاربة السلوكية : ربطت هذه السيكولوجيا بأثر البيئة في السلوك بمعزل عما هو ذاتي معرفي.

-المقاربة التحليلية : منحت للدوافع اللاشعورية المكانة البارزة في سيكولوجية الطفل.
-المقاربة البنائية : "أولت"، للنمو المعرفي الذي ينتقل من الفعل الحركي إلى المعرفة المجردة عبر مراحل كبيرة وكونية للنمو.

*على عكس كل هذه المقاربات، فإن المقاربة المعرفية الحديثة تبنت موقفا مغايرا، يحكمه منطق المنظور التفاعلي بين المحددات الفردية الداخلية والعوامل الاجتماعية الخارجية، في بلورة معالم هذه السيكولوجيا ومقوماتها المتمثلة بالخصوص في مظاهر (الفردانية - التغير - البنينة - التنظير - المواجهة - القابلية للتربية والعلاج.

لقد عرفت السيكولوجيا الحديثة ثورة علمية حقيقية، تمثلت أساسا في تحول فعلي في "براديغمها العلمي" الذي انتقل من "البراديغم السلوكي" إلى "البراديغم المعرفي (Le Grand

¹⁶ - محمود المشاقبة، مبادئ الإرشاد النفسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2008، ص 127-

(1990) وحينما نتحدث عن المعرفانية (le cognitivisme) فنحن نقصد بالدرجة الأولى نوعا من البراديغم العلمي الذي :

*يتخذ من الذهن في معناه الواسع (الأفكار ، التمثلات ، المقاصد ، الذكريات ، الصور) الموضوع الجوهرى للسيكولوجيا .

*يدعو إلى استخدام نظرية معالجة المعلومات كدعامة أساسية في مجال دراسة الاشتغال المعرفي لدى الإنسان (Pellissier.1955 Barss 1986)

ماهي ظروف وشروط تغيير البراديغم في الحقل السيكولوجي ؟ وماهي عوامل ظهور البراديغم المعرفي ومقوماته ومواصفاته ؟

تأسست السيكولوجيا العلمية وبزغت معها فئة جديدة من الوقائع والأفكار الداعية إلى التخلي التدريجي عن فكرة مشروع السيكولوجيا بمقاربة الذات الإنسانية وسبر أغوارها . فالأمر أصبح يتعلق بمفهوم السلوك الذي ينطوي على فئة واسعة من الوقائع القابلة للملاحظة =
*كل معرفة في علم النفس يجب أن تبني انطلاقا من ملاحظة السلوك والظروف التي يتبلور ضمنها هذا الأخير .¹⁷ المسعى المفضل لبناء المعارف على أساس هذه الأرضية يتحدد في المنهج التجريبي (Le Ny 1989) البراديغم السلوكي إذن ، اهتم بدراسة السلوك الملاحظ ، وبتوضيح العلاقات المحتملة بين تغيرات الوضعيات وتغيرات الاستجابات التي تظهرها الكائنات الإنسانية والحيوانية فالظواهر الذهنية كانت مقصاة بشكل واضح ، نظرا لاعتبارات منهجية هدفها الأساسي تفادي الأخطاء السابقة التي وقعت فيها السيكولوجيا الاستبطانية (Tiberghien 1989 .

البراديغم السلوكي ساهم بشكل كبير في تصور السيكولوجيا العلمية ، من خلال قطع الصلة نهائيا مع السيكولوجيا الفلسفية .

*الدفاع عن المنهج التجريبي ضد المنهج الاستبطاني .

*الدفاع عن الظواهر المحسوسة المدركة كموضوع فعلي للسيكولوجيا الحديثة .

¹⁷ - عبد الرحمن عدس . علم النفس التربوي . دار الفكر للطباعة و النشر . عمان . الاردن . 1998 ، ص 41 .

البراديغم السلوكي لعب دورا بارزا في تطوير معارفنا المتعلقة بالقوانين الوظيفية للإشراف والتعلم ، وبشكل خاص قوانين التعزيز والتحريض والتعميم والكف والتمييز. تشكل النظرية الاستقرائية التي اقترحها Hull 1943 الإنجاز النظري الضخم للسلوكية... لكن تركيزها أساسا على السلوك الحيواني ، وغلقها منافذ التحليل أمام أي نشاط إنساني (تمثلات ذهنية) أبان عن محدوديتها.¹⁸ إن تغيير النشاط الإنساني باستخدام مفهوم التعزيز لا يسمح بتوضيح العناصر القصدية والمكونات التمثيلية... وستشكل اللغة المحك الحقيقي للسلوكية في هذا الإطار ، حيث سيتضح سرعة استحالة الاكتساب والاشتغال اللسانيين للدلالة انطلاقا من الخطأطة (مثير - استجابة) فقط . فالسجال بين "شومسكي" و "سكينر" يوضح بما لا يدع أي مجال للشك ، فشل السلوكية في إدراج الظواهر اللسانية في إطار مسلماتها النظرية ، إذ أن التفسير الفعلي للغة يستوجب في واقع الأمر اقتحام هذه العلبة السوداء التي أصر "واطسن" ولأسباب منهجية أن يبقيا مغلفة ومحضرة عن البحث والتقصي. إن « البراديغم » السلوكي في الإعلام و الاتصال القائم على ثنائية الإثارة والاستجابة. وتزامن اقتراب الحرب العالمية الثانية مع ظهور العديد من المؤلفات التي غذت فكرة القوة التأثيرية التي تملكها وسائل الإعلام والدعاية خصوصا، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ حقل الاتصال يتبلور كعلم قائم بذاته في الولايات المتحدة، حيث نمت في الفترة نفسها اهتمامات جانبية، حاولت تجاوز البراد يغم السلوكي بثنائياته الاختزالية، فظهر تحليل المضمون كآلية منهجية في دراسة الأخبار والخطب الدينية والإشهار¹⁹.

لقد غلبت على هذه المرحلة الدراسات التي اهتمت بموضوعات كالدعاية وعلاقتها بالسلوك الانتخابي والإشهار، وعلاقته بالسلوك الاستهلاكي والإيمان المطلق بفكرة القوة التأثيرية لوسائل الإعلام. كما ظهرت دراسات تعيد النظر في مقاربة هارولد لازوال H.Lazwel، حيث مهد هذا النقد ظهور وتناسل دراسات تهتم بالجمهور، وتتبنى الأفق المعرفي للمنظور الوظيفي؛ حيث تعتبر الوسائط الإعلامية أدوات غير قادرة على إحداث تأثيرات مباشرة على الجمهور، بل إن عملية التأثير تتم على مراحل وضمن مسارات اجتماعية متعددة ، كما استندت

¹⁸ - كامل محمد عويضة. علم النفس. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. طبعة 1، ص 16.

¹⁹ - حسن سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الاعلام و الاتصال، مرجع سبق ذكره ، ص 32.

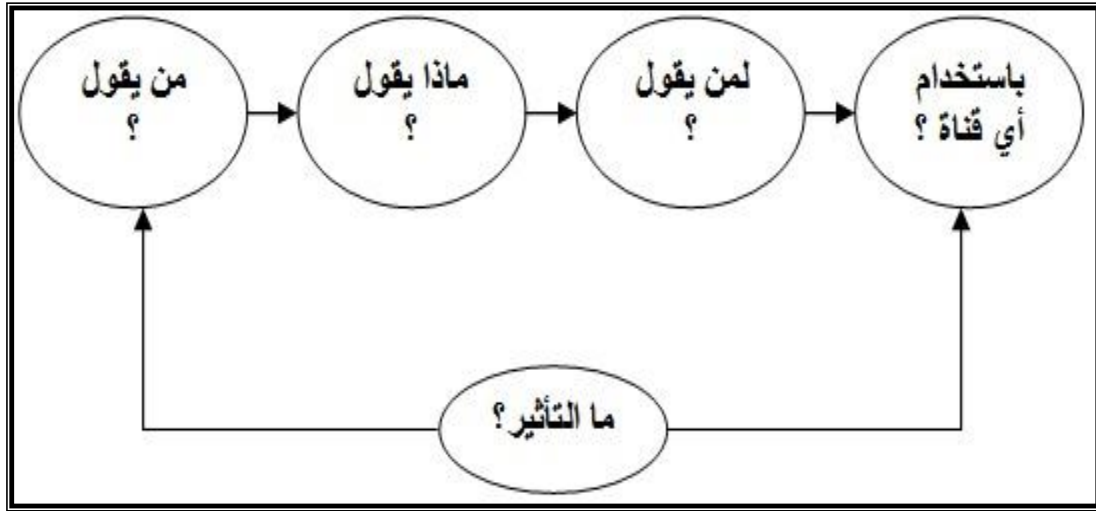
علوم الإعلام والاتصال تاريخيا على مرتكزات علمية منهجية ومفاهيمية مستخلصة من العلوم المجاورة لها؛ من علوم سياسية، اجتماعية، إنسانية، اقتصاد، لسانيات... وهو ما انعكس في غلبة التداخل المعرفي عليها؛ حيث تتقاطع المفاهيم والمقاربات والمناهج على اعتبار أن علوم الإعلام والاتصال فضاء وملتقى لمجموعة كبيرة من الحقول المعرفية. لعل هذا ما صعب وأخر انطلاق المجهودات التنظيرية التي تتخذها موضوعا معرفيا لها، وطبعها، في بدايتها على الأقل، بغلبة المنظور الأنجلو – أمريكي، والأمبريقي التجريبي عليها.

لقد دفع التمايز في الأولويات بين العالم العربي وغيره من العوالم الأخرى خاصة العالم الغربي حيث تصنف معظم البلدان العربية ضمن المجتمعات النامية التي تحظى فيها قضايا مثل التحرر السياسي والاقتصادي بالأولوية، إلى تمايز في أدوار ووظائف وسائل الإعلام، وهو ما انعكس في النظم الإعلامية في العالم العربي، وبالتالي الممارسة الإعلامية العربية، حيث اختلفت عن نظيرتها الغربية؛ إذ تأثرت الأولى بالسلطة السياسية؛ حيث تشكل وسائل الإعلام أداة للممارسة السياسية، كما أن الأساس النظري الذي تركز عليه الدراسات في الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة مختلف، وذلك لطبيعة البيئة الاجتماعية والسياسية والبيئة التي تحرك داخلها الحدث الإعلامي والثقافي بدون أن ننسى طبيعة التكوين الفكري وقدرات الجمهور المتلقي. من مميزات البراديغم السلوكي :

- 1- طبق في دراسة تأثير وسائل الإعلام على الجماهير و أن محتوياتها هي عبارة عن مثيرات و أما ردود أفعال الجماهير هي الاستجابة الشرطية الفورية.
- 2- الجمهور سلبي يتفاعل بسرعة و سهولة .
- 3- ظهور نظرية الحقنة تحت الجلد و القذيفة السحرية
- 4- تحكم وسائل الاتصال الجماهيري بالرأي العام و توجيهه .
- 5- تطبيق دراسات السلوكية على علاقة الجماهير بوسائل الإعلام من خلال التسويق و الإشهارات و استخدام المحفزات و المثيرات التي تؤثر على الجماهير .

اتجاهات البراديغم الجديدة :

نجد نموذج هارولد لازويل و المتكون من خمس عناصر أساسية و هي المرسل و المستقبل و الرسالة و الوسيلة و رجع الصدى ، كلها محددات للعملية الاتصالية عند لازويل و النموذج بالشكل التالي : الشكل رقم 02 : نموذج << لاسويل - Laswell >> للاتصال²⁰:



لقد اهتم [لازويل] بتأثير العملية الاتصالية على المستقبل وذلك لأن تركيزه انصب على دراسة وتحليل محتوى الدعاية الأساسية والرأي العام في أمريكا إلا أن هذا النموذج انتقد كثيراً :

- 1- من البديهي أن للمرسل هدف للتأثير على المستقبل . ما علينا إلا النظر إلى عملية الاتصال على أنها عملية إقناعية أو حتى إغرائية .
- 2- يفترض أن الرسائل الاتصالية دائماً لها تأثير .
- 3- المبالغة في عملية التأثير على الاتصال الجماهيري بسبب اهتماماته الأساسية .

²⁰ - ملفين ذيفلر و ساندرا ج.بول - روكيش (مترجم) : "نظريات وسائل الإعلام" الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة 1993 (الجزء الثاني). ص 103.

يمكن استخدام هذا النموذج وتطبيقه في تحليل الدعاية السياسية وأثرها على الرأي العام وخاصة في تحليل الحروب النفسية وفي عملية الإعلان التجاري وأخبار الدبلوماسيين والجواسيس والمراسلين الصحفيين.

4- حذف عنصر أساسياً وهو عنصر الاستجابة أو التغذية الراجعة من نموذج الاتصال لديه يسير في اتجاه واحد من المراسل إلى المستقبل ليحقق تأثير ما ، وهذا يعكس تاريخ وضع هذا النموذج الذي يعد من أوائل النماذج²¹.

أما النموذج الثاني هو : نموذج بول لازارد سفيلد (الحقنة تحت الجلد) النموذج الذي يشرح قوة تأثير وسائل الاعلام على الجمهور بطريقة قوية و مباشرة فمسار العلمية الاتصالية خطّي من القائم بالرسالة الى القناة او الوسيلة الى الجمهور ليتم التأثير بطريقة مباشرة و سريعة وقوية ، كما ان النموذج استفادة من دراسات المدرسة السلوكية في ثنائية المثير و الاستجابة .

تدعي هذه النظرية أن وسائل الإعلام (وخاصة الراديو) هي بمثابة حقنة التي من خلالها تمر الرسائل إلى عقل الفرد بشكل فوري ومباشر و لقد أُعتبر الراديو وسيلة قادرة على كل شيء ، والمرسل عنصر قوي قادر على حقن كل شيء للمستقبلين أما المستقبل فهو ضعيف وغير فعال، بعيد عن الأشخاص المتواجدين في محيطه، ومُعرض للمضامين المارة إليه من خلال "الحقنة".

كانت البداية الحقيقية لاختبار صحة الفرضيات بقصة اجتياح (غزو) المريخ: في 31 أكتوبر عام 1938 في ليلة عيد كل القديسين (Halloween) ، وهو عيد يسمح به عمل "مقابل" بين الناس في أمريكا، كان الممثل «أور سون ويلز» متواجدا في أستوديو راديو CBS في نيويورك وقام ببث تمثيلية إذاعية درامية تحت عنوان "حرب الكواكب"، هذا البث الذي تم إعداده مشابها لبرنامج إخباري وصف بشكل واقعي وجدي جدا غزو مخلوقات غريبة من المريخ للكرة الأرضية، و سيطرتهم على أمريكا وعلى العالم ونيتهم هدم العالم بأسره، البث شمل مقابلات مع علماء مختلفين وخطاب من وزير الداخلية موجها للمواطنين ووصف حي لأحداث درامية ففي بداية البرنامج، منتصفه ونهايته أعلن أن المسرحية خيالية لكن بالرغم من هذا أكثر من مليون

21 - جيهان أحمد رشتي ، المرجع السابق، ص 74.

شخص صدقوا ما سمعوه واعتقدوا بان هذا حقا ما يحدث بالواقع، فالبعض أصيب بالذعر والخوف، ودّعوا عائلاتهم، توجهوا للكنائس من اجل الصلاة والبعض هربوا من بيوتهم.

- هذا البث أُعتبر مثالا آخر للتأثير القوي لوسائل الإعلام على الناس وأدى إلى ترسيخ الاعتقاد بان الإعلام قادر على كل شيء. في أعقاب البث أُعدت أبحاث كثيرة أهمها حمل اسم "غزو المريخ" و قد فحص البحث ثلاثة أسئلة:

1. كم عدد الأشخاص الذين استمعوا للبث وكم عدد الذين أُصيبوا بالذعر؟
 2. لماذا نجح هذا البث بإخافة الناس وبرامج إذاعية خيالية أخرى لم تنجح بذلك؟
 3. لماذا خاف أشخاص معينون و آخرون لم يخافوا؟
- بالنسبة للسؤال الأول كان هنالك العديد من الاستطلاعات والكثير من النتائج لكن التقييم النهائي كان أن عدد المستمعين للبث هو ستة ملايين شخص و 1.7 مليون من المستمعين اعتقدوا أن البث هو نشرة إخبارية حقيقية، وذعر حوالي مليون شخص ، أما بالنسبة للسؤال الثاني وجد أن هنالك خمسة مميزات ميزت البث وأدت للذعر:
1. السيناريو كُتب ونفذ بصوره دراميّة ومقنعه للغاية لدرجة انه كان من الصعب حتّى على المستمعين الأذكياء عدم التصديق وخاصة الدقائق الأولى من البث.
 2. في ذلك الوقت اعتبر الراديو مصدراً موثقاً به للمعلومات وخاصة بالنسبة للطبقات الفقيرة التي لم تتعرض للصحافة المكتوبة.
 3. المقابلات مع أخصائيين وهميين كفلكي مشهور جداً من الولايات المتحدة (ويلز قام بدوره).

4. ذكر أسماء أماكن حقيقية (مدن وشوارع).

5. أكثر من أربعين بالمائة من المستمعين لم يسمعو البث من البداية ولذلك فوتوا فرصة سماع الملاحظة التي ذُكرت بالافتتاحية بأن البث خيالي²².

- بالنسبة للسؤال الثالث في البحث، تم التوصل لأربع مجموعات من المستمعين:

22 - ملفين ديفلير وساندرا بول - روكيش (ترجمة عبد الرؤوف)، مرجع سبق ذكره ، ص 65.

1. مستمعين الذين استنتجوا من خلال البث نفسه أنه ليس حقيقيا وغير واقعي لذا لم يبقوا خائفين طوال البث.
 2. مستمعين قاموا بإجراء مقارنة للبث مع معلومات خارجية واكتشفوا انه ليس حقيقي مثل الأشخاص الذين انتقلوا لمحطات إذاعية أخرى لفحص الأمر أو قرؤوا قائمة البرامج الإذاعية من الصحف وعرفوا أن هذا البرنامج الإذاعي خيالي.
 3. مستمعين الذين حاولوا التحقق من التقارير بمساعدة معلومات خارجية لكنهم استمروا بالاعتقاد أن البث حقيقي (مثل الأشخاص الذين نظروا من الشباك أو خرجوا للشارع).
 4. مستمعين الذين صدقوا البث ولم يحاولوا بالمرّة التأكد من صحته وبقوا مذعورين.
- أثبتت الأبحاث أن هنالك فروقا بين المستمعين الذين صدقوا البث وبين الذين لم يصدقوه وحاولوا التأكد من صحته. فاتضح أن الذين صدقوه هم أشخاص ذوي مستوى ثقافي منخفض، مؤمنين أكثر بالدين، ذوي ميول للخوف وثقتهم بأنفسهم منخفضة. المستمعين الذين لم يصدقوا البث عُرِفوا كأصحاب قدرة نقدية عالية لكن سرعان ما تعرضت الى النقد ، فظهر فيما بعد أنه ليس دائما الجمهور سلبي و ليس كتلة ملساء تتأثر مباشرة و بدرجة قوية على العكس فبعد الدراسات اللاحقة اتضح أن جمهور وسائل الإعلام هو غير متجانس و لا يشكل كتلة ملساء سلبية ، فهو إيجابي يتأثر بقيادة الرأي و عوامل مختلفة في المصدر و الاتجاه²³.

خاتمة:

إبستمولوجيا الاعلام و الاتصال تجسدت من خلال براديغمات نموذجية فسّرت مجالات و ايدولوجيات كل نظرية، فيها تم تصنيف كل توجه نظري حسب الاطار المرجعي الذي استلهم منه اما المنهج أو الإطار الدلالي في التحليل و الاستنتاج ، فمفاهيم البراديغم تعددت و تغيرت من فترة ظمنية الى اخرى ، فاول براديغم ظهر في الاتصال هو السيبرنطقي الذي مثله النموذج الرياضي لشانون و يوفر في التفسير الالي للعملية الاتصالية و قد تناولنا النموذج بالشرح و التفصيل ، و ما أفرزه على بحوث الاتصال التي ركّزت على الالة أي وسائل

23- المرجع نفسه ، ص 67 .

الاتصال و الاعلام و سيطرة الالة على الانشطة الاتصالية وكيف تحول الاتصال من الانسانية الى الالية ، و كذلك دخول الرياضيات و الاحصاء في تكميم الظاهرة الاتصالية ، كل تلك المقاربات ساهمت بشكل كبير في بناء فضاء و مجال لعلوم الاعلام و الاتصال .

نجد كذلك نموذج ثاني لا يقل عن الاول و يمثل السيبرنيطيقي بدرجة واضحة من خلال عرض مارشال ماكلوهان لفكرة ان الوسيلة هي الرسالة و فرضية الحتمية التكنولوجية و تفصيل عصر الدوائر الالكترونية و كيف أصبحت الان الوسيلة هي التي تحدد طبيعة المجتمعات و تحدد نوع العلاقات الاجتماعية بل حتى أنها تحدد عمر و طبيعة العلاقات لتتحكم في ثلاثية الزمان والمكان و التفاعل . لننتقل ثانيا الى البراديغم السلوكي الذي لا يقل أهمية عن السيبرنيطيقي ، فقد ساهم بكشل كبير في تطور بحوث الدراسات النفسية و الاجتماعية ، لتستفيد منه علوم الاتصال نفسيا و اجتماعيا في تفسير العملية الاتصالية و الاعلامية ، ففي النماذج الكلاسيكية نجد افكار واطسون و بافلوف*¹ في ثنائية المثير و الاستجابة ، فقد اعتمد [بول لازارد سفيلد] في نظريته الحقنة تحت الجلد على أفكار السلوكية لفهم تأثير محتوى وسائل الإعلام على الجماهير ، فاستخلص عديد النتائج في ثنائية المثير و الاستجابة و توصل الى عديد الافكار منها سلبية الجمهور و أن محتوى وسائل الاعلام يشبه محتوى الحقنة المخدرة للجسم، كل ذلك من بعد ظهور براديغمات إبستمولوجية أسست لفهم جديد للظاهرة الاتصالية ، سهّلت من ضبط أليات التحكم النظري لنماذج الاتصال و زادت من وضوح مسار بحوث الاتصال من أجل فهم أعمق لما يحدث من تفاعلات في الحياة الاجتماعية على مستوى الاتصال.

* بافلوف، ايفان بتروفيتش (1849-1936) (Petrovich Ivan, Pavlov) م)، عالم طبيعى روسي، حائز على جائزة نوبل، مؤسس الدراسات التجريبية الموضوعية للنشاط العصبي الأعلى عند الحيوان والإنسان، مستخدماً منهج الإنعكاسات الشرطية وغير الشرطية.

الهوامش:

- 1- حسين سعد ، براديغمات البحوث الإعلامية -الابستمولوجيا - الإشكاليات - الأذروحات ، دار المنهل اللبناني ، بيروت ، طبعة الاولى ، 2017 .
- 2- خير الله عصار، مدخل للسيبرنطيقا الاجتماعية :محاولة التحكم بالسلوك الاجتماعي ديوان المطبوعات الجامعية/ الجزائر 2002.
- 3- جيهان أحمد رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط 3 ، 1986 .
- 4- حسن عماد مكاي ، ليلي حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2009.
- 5- محمود المشاقبة ، مبادئ الإرشاد النفسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2008 .
- 6- عبد الرحمن عدس. علم النفس التربوي. دار الفكر للطباعة و النشر. عمان. الاردن. 1998.
- 7- كامل محمد محمد عويضة. علم النفس. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. طبعة 1.
- 8- ملفين ذيفلر و ساندر ج. بول - روكيش (مترجم) : "نظريات وسائل الإعلام" الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة 1993 (الجزء الثاني).

مراجع أجنبية :

- 1- Norbert Wiener: Cybernetics Or control and communication in the animal and the machine;The Technology Press; John Wiley & Sons, Inc., New York; Hermann et Cie, Paris; 1948, p194.

المواقع الالكترونية :

*حسن سعد، البراديغمات المسيطرة في علوم الاعلام و الاتصال و اشكالياتها المعرفية متاح في :
https://cte.univ-setif2.dz/moodle/pluginfile.php/28162/mod_glossary/attachment/2944/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%BA%D9%85%D8%A7%D8%AA%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%8A%D8%B7%D8%B1%D8%A9%20%D9%81%D9%8A%20%D8%B9%D9%84%D9%88%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D9%84%20%D9%88%D8%A5%D8%B4%D9%83%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%AA%D9%87%D8%A7%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%A9.pdf - p7 le 20-01-2020.a 13 :55